اكتشاف معبد جديد هام من عصر البرونز الوسيط الثاني في ابلا وهو شاهد آخر على وحدة التراث المعماري في سوريا وفلسطين

تاليف : باولو ماتييه

ترجمة : محمد وحيد خياطة

ان أعمال التنقيب التي قمنا بها عام ١٩٨٦ في المدينة التحتانية لمدينة ابلا في الموقع (P) قادتنا للتعرف على بناء ملكي جديد ذي اهمية بالغة ، وقد شاهدنا آثاره واضحة في المركز وفي المناطق الشمالية ، في حين كان مدمرا تدميرا كاملا وخاصة في الغرب والحدود الشرقية ، كما انه كان متواريا في أساساته الواقعة في الزوايا الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية(١) . وكنا قد اصطلحنا على تسمية هذا البناء الملكي المهيب القصر «P» ، أو القصر الشمالي ، ويعود القصر بمعظمه في شكله الحالي الى عصر البرونز الثاني ، وقد أصابه الخراب والتدمير حوالي ١٦٠٠ ق.م ، وتبلغ مساحته الاجمالية حوالي ٣٥٠٠ م٢ .

ومما يثبت أن هذا البناء كان بناء ملكيا بالتأكيد ، وانه ذو صفة رسمية ، وكانت تقام فيه الاحتفالات الرسمية ، هو عثورنا على قاعة عرش في مركز القصر ، وهذه القاعة مناسبة جدا لاستقبال الوافدين الى القصر كما نعتقد(٢) ، ويدعم افتراضنا هذا عثورنا على بعض آثار عاجية محفور عليها صورة شجرة نخيل ، وصورة عاهل سوري عجوز يعتمر قبعة بيضاوية الشكل ويرتدي عباءة فضفاضة مزخرفة بشراريب ممسكا فاسا ذا فجوات مشغول بالاسلوب السوري . وقد تم كشف هذه الاشياء في قاعة العرش نفسها الى جانب عثورنا على عدد كبير من القطع العاجية المشغولة بالاسلوب المصري كانت مخزونة في مستودع يقع الى الشرق من قاعة العرش . ناهيك عن بقايا صورة اخرى ذات طابع ملكي ، مما يؤكد طبيعة البناء المذكور بصفته قصرا ملكيا(٣) .

وبينما نجد أجزاء عديدة من محيط القصر في جهته الغربية حيث نعتقد بوجود مدخل للبناء نفتقد وجود مثل هذا المدخل الى القصر من جهته الشرقية ، والسبب في ذلك أن أحجار البناء في هذا الموقع استغلت في تشييد أبنية اخرى وبخاصة في عصري الحديد الثاني والثالث والعصر الفارسي . وكان يوجد على امتداد أطراف القصر الشمالية والجنوبية ازقة تفصل القصر الملكي عن بقية الابنية المدنية في شمالي المدينة التحتانية .

وكنا قد كشفنا عام ١٩٨٨ (انظر الشكل رقم /١/) عن خلفية جدار لبناء ديني جديد على امتداد الطرف الجنوبي للزقاق الجنوبي ، ومن المحتمل جدا أن هذا البناء قد تم تشييده في عصر البرونز الوسيط الاول ، ودمر في نهاية عصر البرونز الوسيط الثاني حوالي ١٦٠٠ ق.م . وصممت اتجاهاته من الشمال الى الجنوب بحيث يقع مدخله عبر الطرف الشمالي ، واطلقنا على هذا البناء الديني اسم المعبد (P2) (٤) .

والمعبد (P2) بناء ضخم يتطاول بامتداد المحور الجنوبي الشمالي بطول (٣٠ر٣٣) م وعرض (٢٠) م ، ويحيط به سور قوي تماما بلغت سماكته

في الجدار الشمالي الخلفي حوالي (٧) م ، بينما كانت تتراوح هذه السماكة في الاطراف الشرقية والغربية بين (٣ر٩٠) و (٤) م ، اما واجهة السور الجنوبية فيبلغ سمكها (٣ر٣٠) م – انظر الاشكال المصورة (2a - d) وتتألف قاعة العبادة من غرفة مفردة واسعة طوليا ومدخل محوري يخترق واجهة الجدار القصيرة بقياس ٢٠ر٥٠ × ١٢ م .

ومن الملامح المميزة لهذا المعبد وجود دعامتين للواجهة ، وتمتد هاتان الدعامتان باتجاه الجنوب الى أطراف الجدران ، ويرافق هذا الامتداد ثخانة الجدران المتعاظمة . كما يوجد دعامتان أخريتان أمام واجهة الجدار الجنوبي تشكلان مجازا « دهليز » قليل العمق بقياس ١٠ر٥٠ × ٢ر٣٠ م . ولاحظنا في وسط الجدار الخلفي لقاعة العبادة كوة (على شكل محراب) قليلة العمق (٠ر٨٠) م بطول (٥ر٣٠) م (انظر الشكل المصور 3c - d) ولم يكن من السهل علينا التعرف على أساسات البناء نظرا لفقدان الساقط الراسية .

وكنا قد عثرنا على تمثال رجل جالس وآخر لامرأة واقفة فاقدة الراس وكسر عديدة لتمثال كبير يمثل رجلا جالسا (انظر الاشكال المصورة) .

وذلك في المقطع الواقع امام الدهليز (ردهة ، مجاز) بالقرب من الدعامة الشرقية بين الاحجار المقلوبة في الاساسات المنهوبة ، التي استخدمت حجارتها لتشييد ابنية أحدث . وتؤرخ هذه التماثيل من عام (١٨٥٠) الى عام (١٦٠٠) ق.م ومن عام (١٦٥٠) الى عام (١٦٠٠) ق.م على وجه التقريب(٥) .

وكل هذه التماثيل كانت منحوتة من حجر البازلت وقد أصابها الخراب والتدمير فيما بعد باستثناء التمثال الاول الذي نجا من الضرر في لحظة خراب المعبد (P2) حوالي (١٦٠٠) ق.م . ولكن التماثيل المذكورة جمعت ودفنت بشكل دقيق في موقع الاكتشاف اثناء النهب الاخير لحجارة المعبد ، وكان ذلك في العصر الفارسي الهلنستي . والتمثال الكامل الذي اتينا على ذكره آنفا يمثل موظفا كبير الشان او كاهنا رغم ان تمثاله اقل جودة من التمثالين الاخرين (انظر الشكل رقم ٤) . وهو حاسر الراس يحمل شارة السلطة ذات الشكل المعكوف باتجاه صدره ، ونعتقد أن التمثال المذكور يرقى بعهده الى حوالي ١٨٠٠ ق.م . اما التمثالان الاخران فقد شغلا بأسلوب فني عالي الجودة (انظر الاشكال المصورة 5a - b) . ونعتقد أن هذين التمثالين هما من بقايا نذرية ذات طابع سحري كان القصر يقدمهما الى المعبد لتنصبا داخله ، ويؤرخان بين عامي ١٧٥٠ و ١٦٠٠ ق.م .

ومهما كان الامر يمكن القول ان طراز البناء العام هو من النوع المسمى (القاعة الطولانية) ذات مدخل محوري وبرجين بارزين في الواجهة(٦) ، وبامكاننا ان نفسر عدم انتظام المعبد في تصميم دقيق في بعض تفاصيله بأن قسما صغيرا فقد من الاساس حافظ على مساقطه الراسية في بعض اجزاء الجدار الخلفي ، وفي طرف الجدار الشرقي ، بينما حافظ الجدار الغربي والواجهة الجنوبية فقط على عمق مسار الاساسات تحت الارضية الاصلية فقط .

والجدير ذكره أن أرضية المعبد (P2) لم تحافظ على نفسها في اي من المواقع التي تم كشفها ، غير اننا عثرنا على أجزاء أرضيات محصورة في أماكن محددة خارج المعبد ، وبالتحديد في منطقة واجهة الردهة . بينما لاحظنا آثار واسعة لمثل هذه الأرضيات الخارجية التي جددت ثلاث مرات في طبقات ثلاث على اقل تقدير .

وكانت هذه الأرضيات تغطي الجانب الشرقي من السور الشرقي للبناء المقدس . ولم نتمكن من وضع مخطط منتظم لقاعة العبادة من الداخل وذلك لأن الحجارة الجيرية الفشيمة الموجودة بكميات كبيرة داخل المصلى منتشرة بشكل متناثر دون اي ضابط يضبطها او ناظم يقيدها . وتفسير ذلك هو ان القسم الأعظم من حجارة بناء المعبد الذي تعرض للنهب ، استخدم اغطية للقبور طيلة العصر الحديدي الثاني والثالث . ولا نستبعد حدوث ذلك ايضا في العصر الفارسي . وقد حدث هذا الشيء إن لم نقل كليا فجزئيا بكل تاكيد في اواخر العصر الروماني وبداية العصر البيزنطي .

ونرى لزاما علينا أن نشير هنا الى أن الكتل الحجرية الواقعة في العمق ربما كان قسم منها يؤلف قاعدة كانت ترتكز فوقها أساسات أسوار المعبد ، ولكن هذا الافتراض لم يزل بحاجة الى مزيد من الدراسة والتوضيح ، ولدينا احتمال آخر وربما هو الأقرب الى الواقع ، ويقضي هذا الافتراض بأن أسوار المعبد كانت تخص في الأصل معبدا أقدم عهدا وأصغر حجما سواء في الطول أو العرض .

ولكن وبكل تأكيد يمكن القول أن المصلى (قاعة العبادة) كان مغطى بإحكام بواسطة سلسلة من الأعمدة . ومن المحتمل أن هذه السلسلة كانت تتألف من صفين ممعنين في الامتداد طوليا ، بدءا من الجنوب بارتباط مع عضادات مدخل المعبد المحوري المفقود وانتهاء أمام زوايا الكوة (المحراب) الخلفية . وطبقا للوضع القائم في المصلى ، ونعني بذلك فقدان الأرضية كليا فمن الصعوبة بمكان أن نحدد موقع كل عامود على حدة في مكانه الأصلي .

إن تصميم المعبد (P2) في المدينة التحتانية شمالي إيبلا على شكل قاعة عبادة منفردة ذات أبراج بارزة يجد تطابقا دقيقا في غاية الوضوح في نموذج معبدين مشهورين في فلسطين ، يرقيان بعهدهما الى عصر البرونز الوسيط في الفترة المسماة (II B - c) ، وفي معابد « مجيدو » في المنطقة المرموزة بالمصطلح (BB ، وفي معبد مجدل في مدينة « شكيم » (٧) . فهذه المعابد الفلسطينية المشابهة كانت تتألف من قاعة عبادة مفردة (مصلى) متميزة بثخانة جدرانها المحيطية يتقدمها رواق (ردهة) محاط ببرجين ، وفي الواقع يكمن التباين في معابد إيبلا ومجيد وشكيم في الحجم فقط رغم الاختلاف البين في شكل الردهات ، والمقصود بذلك انه لا يوجد ثمة اختلاف يذكر سواء في الطراز أو التناسب العام . واللافت للنظر أن المعبدين الفلسطينيين صغيران جدا رغم أنهما شيدا فوق ساحة واسعة .

إن المعبد الموسوم بالرقم « ٢٠٤٨ » ، والمكتشف في الطبقة الثامنة في مجيدو ، يرقى بعهده على ما نعتقد الى عصر البرونز الوسيط الثاني . وهو بقياس ٢١٫٥ × ١٦٫٥ م . وبالمقابل نجد أن المعبد الأقدم عهدا في شكيم والمعروف باسم معبد رقم (١) من عصر البرونز الوسيط من الفترة المسماة (Ic يبلغ قياسه ٢٦٫٣٠ × ٢١٫٢٠ م . وبالمقارنة مع معبد إيبلا (P2) المكتشف حديثا نجد أن قياسات قاعات العبادة هي على التوالي كما يلي (١١٫٥٠ × ٩٫٦٠) م و (١٣٫٥٠ × ١١) م ، بينما يبلغ قياس قاعة العبادة في إيبلا (٢٠٫٥٠ × ١٢) م . وهكذا نرى أن نسبة حجوم المعابد الخارجية طولا وعرضا بالمقارنة مع معبد إيبلا (P2) هي على وجه التقريب ١/٧ ، بينما هي في معبدي « مجيدو » و « شكيم » على التوالي ١/٢ ، ١/٢ ، ١/٢ . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن العناصر المعمارية في المعبدين الفلسطينيين كانت تخضع لتصميم بالغ الدقة والانسجام ، وأن التركيز في معبد إيبلا في سوريا الشمالية كان على التصميم المحوري والشكل الطولاني ، ونحب أن نشير هنا الى اختلاف وحيد في التناسب بين المعبدين الفلسطينيين ومعبد إيبلا في سوريا الشمالية ، وهذا الاختلاف على جانب كبير من الأهمية ويتميز بعمق واجهة الردهة ، فهو (٤) م في معبد مجيدو و (٥) م في شكيم ، بينما لا يتجاوز (٢٫٣٠) م في إيبلا ، كما أن عرض الردهة هو (٦) م في « مجيدو » و (٧) م في « شكيم » ، بينما يبلغ (١٠٫٨٠) م في « إيبلا » ، فهذا الاختلاف في نسب حجوم الردهات سواء من ناحية العرض أو الطول في مجيدو وشكيم والمتمثل ١/٢ و ١/٤ ، بينما هو إيبلا ٤/٥ يشير الى قاعدة هامة في أصل التصميم المعماري والمتمثل في البروز الشديد لحجارة البناء على جوانب واجهة البناء ، ولا يقتصر هذا البروز على الواجهة فقط ، بل يشمل أيضا الردهة نفسها .

وفي الواقع أن تصميم البناء المشيد بكتل متماسكة في المعبدين الفلسطينيين ينحو الى تشكيل برجين حقيقيين في واجهة المعبد بكل ما في الكلمة من معنى بينما الأمر غير ذلك في إيبلا ، فهما هنا بشكل أو بآخر

عبارة عن دعامتين أساسيتين عرض الواحدة منهما يزداد قليلا عن سمك أطراف سور البناء .

ولا مراء في أن حجم الردهة وتناسب قاعة العبادة (المصلى) في المعبد (P2) المكتشف حديثا في إيبلا يقودنا الى التعرف على معابد أخرى في سوريا الشمالية ذات صلة وثيقة بهذا النموذج المعماري ، وهي تعود الى نفس العصر، ونعني بذلك حصرا المعبد (C) في تل البيعة (مدينة توتول القديمة) في أواسط الفرات ، والذي كشفت أساساته في الآونة الأخيرة (٨) .

ويبلغ قياس هذا المعبد القائم في وادي الفرات (١٦٫٥ × ١١٫٥) م وقياس مصلاه (١٠٫٥ × ٦٫٥) م ، وهذه القياسات تجعله مشابها تماما لمعبد (P2) في إيبلا فيما يخص النسب والتناسب ، وهي بالتحديد ½ ، وهذا ملائم جدا للمساحات الداخلية ، وينسحب الأمر نفسه على سماكة سور المعبد ، فالنسبة هنا بين العمق والعرض هي $\frac{١}{٤٫٥}$ من الخارج ، وبالمقابل هي ¼ في بناء إيبلا ، وبينما بلغت النسبة في قاعة العبادة في تل البيعة $\frac{١}{٧}$ نجدها ⅙ في معبد (P2) في إيبلا .

ومهما يكن الأمر فإن واجهة ردهة معبد (C) في توتول لا تبلغ عمق واجهة ردهة معبد (P2) في إيبلا تماما ولا الامتداد في العمق ، وذلك لأن الدعامات أقل سمكا من جدران السور الجانبية ، وبالمقابل نجد ان الكوة الواسعة على شكل محراب في الجدار الخلفي في معبد (C) ليست عميقة شأنها في ذلك شأن مثيلتها في معبد (P2) في إيبلا .

ونخلص مما تقدم الى نتيجة مفادها ـ رغم التباين في مقاسات الحجوم ـ ان معبد (C) في توتول يشبه الى حد بعيد معبد (P2) في إيبلا من ناحية التصميم المعماري ، وكلا المعبدين نشأ في احضان حضارة معمارية واحدة .

ولو اخذنا بعين الاعتبار تصميم المعابد على شكل النموذج المعروف ـ «القاعة الطولانية» ونسبه الداخلية والخارجية، وكذلك تصميم ردهات الواجهة، واختصار نسب دعامات الواجهات لوجدنا تباينا طفيفا بين معبد (C) في توتول ومعبد (P2) في إيبلا ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على وحدة في التخطيط المعماري في المحيط المدني انطلاقا من سوريا الداخلية وصولا الى وادي الفرات طيلة القرون الاولى من الألف الثاني ق.م. وتفيدنا المكتشفات في الآونة الاخيرة في الوصول الى معرفة الاصل الواحد في انتشار الحضارة المعمارية لا سيما في منطقة وادي الفرات ، فقد كشفت البعثة الالمانية العاملة في حلاوة عن بناء ديني على قدر كبير من الاهمية في الموقع الذي اصطلح على تسميته المنقبون بحرف (L) وهو بناء ضخم والأول من نوعه والذي يرقى بعهده الى فجر عصر البرونز الموسوم بالمصطلح (IV A) في الشمال السوري (٩) .

والمعبد (L) في تل حلاوة المؤرخ في الفترة الواقعة ما بين (٢٣٥٠ ـ ٢٣١٠٠٠) ق.م والمحددة في الطبقة الثالثة هو معبد من الطراز المعروف بالقاعة الطولانية ، وهي ذات رواق ودعامة في الواجهة ، وهما استمرار لأسوار المعبد ، ويبلغ قياس المعبد من الخارج (٢٠ × ١٢٫٥) م ، كما بلغت ابعاد قاعة العبادة (١١٫٢٠ × ٦٫٤٠) م ، أما قياس الردهة فهو بسعة ٦٫٤٠ م وعمق (٣) م . وعموما بلغ التناسب في المعبد المذكور ما يقارب $\frac{٢}{٣}$ معبد إيبلا ، وهو اقرب الى معبد توتول . اما من ناحية السعة الداخلية فهو اقرب الى معبد إبلا المكتشف حديثا . وتبين لنا ان درجة التناسب بين الطول والعرض لكامل البناء في تل حلاوة هي $\frac{١}{٦}$ ، بينما هي في إبلا $\frac{١}{٦٫٥}$ ، كما لاحظنا ان نسبة الفرق كانت طفيفة جدا فهي $\frac{١}{٧٫٥}$ في تل حلاوة و $\frac{١}{٧}$ في إبلا . ولاحظنا ايضا ان الرواق في واجهة معبد حلاوة اعمق منه في إبلا ، غير ان العرض

بالمقارنة مع عرض المصلى هو نفسه على الغالب ،وذلك لأن دعامات معبد تل حلاوة الأمامية هي بكل بساطة استمرار لجدران السور ، بينما الدعامات في إبلا اثخن من الجدران الجانبية المحيطة بالمصلى .

واذا صنف معبد (L) في تل حلاوة على انه إنجاز معماري من الطراز المعروف بالمصطلح الألماني (Antentempel) (١٠) فان هذا الطراز المعماري هو نفسه الذي انتشر بشكل خاص في الربع الثالث من الألف الثالث ق.م في شمالي سوريا . وبتحديد أكثر دقة انتشر في أواسط واعالي شواطىء الفرات . وقد جاء اكتشاف معبد صغير من الطراز المعماري نفسه في الآونة الأخيرة في « هاسك هيك »(١١) ليدعم ما ذهبنا اليه من قول ، وقد بلغ قياس المعبد المذكور (٦٫٨٠ × ٣٫٩٠)م وقياس مصلاه (٤ × ٢٫٧٠) م.

إن العناصر المعمارية المشابهة تدفعنا الى التفكير بمقارنتها مع مراحل تاريخية أقدم ترقى بتأريخها الى النصف الثاني من الألف الثالث ق.م وعلى وجه الخصوص الى عصر البرونز المبكر المرسوم بالمصطلح (IV A) ، كما أن التصميم المعماري لما هو معروف بالقاعة الطولانية من طراز (Antentempel) يجعلنا نعتقد بأن هذا الشكل من الأبنية الدينية كان الأقدم في العمارة الدينية المعروفة فيسوريا الداخليةالشمالية واعالي وادي الفرات .

ومن الأهمية بمكان الاشارة الى صعوبة هذا الموضوع الذي ما زال قيد البحث والنقاش ، ونعني بذلك موضوع التواصل الحضاري في شمالي سوريا والممتد من عصر البرونز المبكر (IV A - B) الى عصر البرونز الوسيط (I - II) . فالطراز المعماري المذكور استمر حتى بداية الألف الثاني ق.م في شمالي وادي الفرات، وانتشر بالمقدار نفسه فيسدريا الداخلية وفي جنوبي حلب في المرحلة الثانية . ونلاحظ ذلك بوضوح في المراكز الحضارية الكبيرة على شواهد المنجزات المعمارية الهامة لاسيما في الابنية الضخمة المكتشفة في كل من إبلا وتوتول حيث نجد ان المعمار ركز جل اهتمامه على ما يسمى بالقاعة الطولانية ، وإن كان ثمة اختلاف في شكل الردهة الكبيرة التي اصبحت اقل عمقا واقل عرضا ، ناهيك عن ان دعائم الواجهة اصبحت اقصر (أقل طولا) ، ولكن بالمقابل اسمك . ويكفي ان نشير هنا لإبلا للدلالة على هذا الأمر ، وزيادة في التوكيد نلمح ايضا الى (مجيدو) و (شكيم) .

وفي الحقيقة علينا أن ناخذ بالحسبان ان المعابد الكبيرة في فلسطين في كل من (مجيدو) و (شكيم) شهدت بعض التعديلات في طراز معبد (Antentempel) طيلة العصر البرونز الوسيط الموسوم بالمصطلح (II B) . ونرى هذا الطراز المعدل أوضح في وادي نهر الاردن في تل الشيخ الذي يدعى الآن «تل كتان»(١٢) وذلك في معبد الطبقة الخامسة التي تلي الطبقة الرابعة والمؤرخة في عصر البرونز الوسيط الموسوم بالمصطلح (II C) فلهذا المعبد قاعة عبادة طولانية ولكن دون ردهة أمامية ، وهي مشابهة تماما للمعبد (A) في « حاصور »(١٣) .

وبامكاننا الآن بعد هذا العرض أن نصل الى خلاصة مفادها أن معبد (P2) في إبلا يقدم لنا ظاهرة تستحق كل اهتمام، وتتجسد هذه الظاهرة بالوحدة الحضارية فيما يخص التصاميم المعمارية في كل من سوريا وفلسطين وذلك في الفترة الممتدة من ١٧٥٠ – ١٦٠٠ ق.م ولم تكن هذه الوحدة في هذا العصر إلا نتاج تراث اقدم ساد في سوريا الشمالية منذ عام ٢٣٠٠ ق.م . ولا ينقطع التواصل الحضاري المتمثل بوحدة الحضارة العمرانية عند هذا الحد ، بل يستمر مع بعض التباين الذي تفرضه افكار جديدة منبثقة عن الواقع المحلي حتى بعد عام ١٥٠٠ ق.م(١٤) . ويبقى هذا التواصل في التراث عبر التاريخ حتى نصل مشارف القرن الاولى من الألف الاول ق.م .